من ثنايا التاريخ والأدب الاجتماعى :

النماذج الأساسية للأسرة الأبوية

للدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

إذا تصفحنا أسفار التاريخ فطالعنا فيها ماحاكته يد البشرية من سجلات الزمن، وأنعمنا فيها النظر قصد الموازنة والتحليل ، ألفينا الأسرة قد ارتدت فى العصور المختلفة ثيابا متباينة الألوان، وظهرت فى صور متفاوتة الهيئات، متعارضة الكيفيات . ومهما حاولنا الاقتضاب، ورجحنا الإيجاز على الإسهاب ، وحصرنا القلم فى أضيق ما نستطيعه من الدوائر ، فاننا لانجد بدا من أن نلاحظ طائرين أو كارهين أن الأسرة قد اتخذت خلال الأزمان والأجيال طرقا شتى ، وسلكت وسائل متشعبة ينبغى أن نطوف بها طوفة عاجلة قبل أن نعرض لآثارها البارزة فى الفرد والمجتمع ، وإليك تلك الطوفة :

فى مصر :

كانت الأسرة فى بلاد الفراعنة قوية الدعائم ، متينة البنيان وكان فيها السلطان لربها ، ولكنه كان سلطانا معتدلا يمتاز بالوداعة والهوادة ولين الجانب ، فلم تكن المرأة فى الأسرة المصرية مستعبدة، أو مضطهدة، أو مجردة من حقوقها الطبيعية والاجتماعية، بل كانت على العكس تستمتع بأكمل أنواع الحرية، فتخرج من المنزل متى شاءت وكيف شاءت، وتساهم فى مجد زوجها وشرفه ، وتذوق حلاوة المتعة بألقابه ، وتتباهى بشهرته حيث كانت تدعى فى كل مكان بلقب وظيفته وترتفع إلى مكانته الاجتماعية .

وإذا كان الأدباء فى كل زمان ومكان يصورون فى قصصهم ورواياتهم ما يقع حولهم من الأحداث، وكان الأدب لهذا السبب مرآة الحياتين : الاجتماعية والخلقية فى كل أمة، فانا نرى لزاما علينا أن نقف هنيهة أمام القصص الشعبية المصرية الأثرية التى جمعها المستعمر الكبير الأستاذ ماسپرو ، وترجمها إلى الفرنسية، ونتأمل فيها مليا ، لنرى كيف كانت المرأة المصرية محوطة لدى أولادها بسياج من الجلال، منظورا إليها من زوجها بعين الاحترام ، إكبارا لعقليتها وتقديرا لمواهبها ، مشهودا لها من الجميع بالقدرة على حل المشكلات العويصة التى تنعقد أمام زوجها ، وفوق ذلك فاننا نراها فى إثبات التاريخ وبين صفحات الأدب الشعبى القديم، لاتكاد تفارق زوجها فى الاستمتاع بمجده كما لا تفارقه فى احتمال أشق محنه وأقسى آلامه . ففى الأولى يحدثنا هيرودوت كيف أن الملك "سيزوستريس" قد سافر فى حملة ووكل أمر المملكة إلى أخيه ، ولما عاد مع زوجه التى لم تكن تفارقه البتة سقطا فى الفخ الذى كان ذلك الأخ الغادر قد نصبه لهما وكادت النار تلتهمهما وجميع أولادهما. وهنا هرع

"سيزوستريس" إلى حكمة زوجه فسألها النصيحة للخروج من هذا المأزق . ولما كانت هذه الزوج حاضرة البديهة ، جمة الإخلاص ، قوية الإرادة ، فقد بادرت فى الحال بتضحية ولدين من أولادهما بأن أرقدتهما فى النار ليكونا معبرا يمر عليه الباقون إلى موضع النجاة . وفى الثانية — وهى صفحات الأدب — ينبئنا احد الرواة أن أميرا كان بعض العرافين قد أنذره بأنه سيهوى بين براثن عدد من الكوارث والنكبات ، فأفضى بسره إلى زوجه الحكيمة القوية العزيمة ، فصممت على أن تغالب الأقدار حتى تدفعها عن زوجها ، وقد نفذت تصميمها فنجحت فى إنقاذه من بين مخالب الأخطار .

ولئن كان كل ذلك من الأساطير التى لا وجود لها فى عالم الحقائق ، فان الذى لاريب فيه هو ذلك الإيمان الراسخ الذى كان يملأ قلوب الأدباء بقوة المرأة وحكمتها ، وذلك الإجلال الذى كانوا يشاهدونها محوطة به فى كل مكان . وإذا أغضينا عن القصص الأسطورية ونظرنا فى الحكم الخلقية والاجتماعية التى تعتبر أساسا لتربية الأمة الفينيقية نجدها محتفظة باحترام المرأة ووضعها فى الصف الأول إلى جانب زوجها إن لم تكن متقدمة عليه أحيانا . ومن شواهد ذلك ما جاء فى حكم الكاتب "أنى" التى نقتطف منها هذه الشذرات : "... إن أمك هى التى حملتك وقاست فى ذلك احتمال الآلام ... وهى التى أدخلتك المدرسة ، وفى أثناء دراستك كانت تدأب على زيارتك فى كل يوم عند أستاذك حاملة لك الطعام والشراب من المنزل . ضع دائما نصب عينيك ألم الوضع الذى احتملته يوم ولادتك ، ولا تنس كل المتاعب التى تجشمتها لسلامتك ، ولا تعمل ما يجعلها تشكو منك خشية أن ترفع يديها نحو الإله فيسمع شكايتها" .

عند العبرانيين :

غير أننا إذا غادرنا وادى النيل وما كانت الأسرة فيه مستمتعة به من احترام متبادل وتقدير متكافئ ، واتجهنا إلى غيره من البلاد القديمة فتابعنا مثلا الأستاذ ارنست رينان [1] إلى مقر بنى اسرائيل الأولين عند ما كانوا قبائل رحالة ، ووقفنا بتلك الأصقاع برهة نتأمل فى حالة الأسرة هنالك ألفيناها تكاد تتلاشى فى رئيسها الأعلى وسيدها المطاع الذى لا ينازع سلطانه ولا يسأل عما يفعل ، ولا يجرؤ أحد من أفرادها على أن يرفع رأسه أمام جبروته . ولم يكن هذا السيد الطاغية هو رب الأسرة الفرعية الصغيرة ، وإنما كان ذلك الشيخ المسن هو رمز الربوبية والسلطان . ولهذا كانت المحكمة التى تقضى بين الجميع مؤلفة من أولئك الشيوخ الذين كان بأيديهم الأمر والنهى . وكان لكل واحد من هؤلاء الأرباب

---

(١) ارنست رينان : عالم واسع الاطلاع ومنزع دقيق التحقيق ، ولد فى بريتانيا الفرنسية فى سنة ١٨٢٣ وقد دفعه غرامه بالكتابة عن بنى اسرائيل إلى تعلم اللغة العبرية ، ويعتبر من كبار المتخصصين فى تاريخ الشعب العبرانى وقد توفى فى سنة ١٨٩٢

الحق فى تزوج امرأة أو امرأتين من طبقة الأشراف ، وله الحق كذلك فى أن يتسرى بمن شاء من الرقيقات سواء أكن ملكا له أو لإحدى زوجيه ، وكان الحق فى وراثة الرياسة وما يعقبها من امتيازات ينتقل إلى أكبر أولاده الذكور سنا على شرط أن تكون أمه من طبقات الأشراف ، أما أبناء السراري فلم يكن لهم الحق فى وراثة هذه الامتيازات ولا فى الاستمتاع بكل حقوق أبناء بنات الأشراف وإن كانوا ينسبون إلى الأسرة ولهم فيها بعض الحقوق . وبالإجمال يمكننا أن نقول : إن دور المرأة فى الأسرة الاسرائيلية القديمة يكاد يكون أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ولم يكن لها فى تلك الأصقاع اعتبار ذو شأن .

عند الهيلين :

على أن تركز سلطان الأسرة أو انحصار امتيازاتها فى ربها الأوحد لم يكن فى تلك العصور بدعة انفرد بها بنو اسرائيل ، وإنما نحن نلمحه بارزا فى غير ذلك الشعب من الشعوب الأثرية ، فاذا تركنا الشرق وولينا وجوهنا شطر الأمة الهيلينية فى عصر أبطالها الأسطوريين ، وجدنا للأسرة فيها ذلك المظهر الأبوى الذى تركناه عند العبران ، ورأينا أعضاءها الكثيرى العدد يقيمون تحت سقف واحد ، ويخضعون لسلطان واحد ، وهو سلطان ذلك الرئيس الأعلى وهاك ما يصور به هو ميروس قصر پرياموس ملك تروادة إذ يقول :

" يوجد فى القصر خمسون جناحا متجاورة قد بنيت بالأحجار الملساء ، وفيها يقيم أبناء پرياموس إلى جانب زوجاتهم . وتجاه هذه الأجنحة أى فى الجانب المخصص للنساء يرتفع اثنا عشر جناحا بنيت كذلك بالأحجار الملساء حيث يقيم أصهار الملك مع زوجاتهم الطاهرات " .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن هو ميروس عند ما صور قصر ملك تروادة لم يكن يزيد على أنه يستمد هذا التصوير مما يحيط به من مظاهر إغريقية بحتة ، دون أن يتنبه إلى الفرق بين الإغريق والتروادين ، فعنده كان الشعبان من عنصر واحد ، وكانا يتكلمان لغة واحدة ، ويدينان بعقيدة واحدة ، ويخضعان لقانون واحد .

كان أفراد الأسرة الإغريقية إذا يقيمون مع رئيسهم ويذعنون لأوامره مهما بلغت من العسف والطغيان أقصى حدودها . وإذا توفى انتقل هذا السلطان بقضه وقضيضه إلى أرشد أبنائه . وقد كان هذا الطغيان يعظم ويقسو حتى يتناول حق الموت والحياة ، فيقتل الرئيس من أفراد الأسرة من يشاء ولو كانوا من الأبرياء الذين لم يقترفوا جناية ولا إثما . ونحن إذا استشهدنا على صحة ما نقول ببطائفة من الاساطير الإغريقية فانما نفعل ذلك لسببين : أولهما أن التاريخ الصحيح يؤيد أكثر ما فى تلك الأساطير من وقائع وأحداث تأييدا قاطعا ، وثانيهما أن الباحثين المحدثين قد فرغوا من تحقيق أن الأساطير ليس فيها

ما يخالف الحقيقة سوى مظاهرها الشكلية التى صيغت فيها. أما أعماقها ومغازيها ومراميها والصور الأجتماعية والخلقية التى رسمت فيها ، فهى اجزاء من الحقيقة لا تقبل التجزئة ، وقد انتهى أولئك الباحثون أيضا من تقرير أن نبذ الأساطير بحذافيرها واعتبار كل ما ورد فيها خرافيا ضرب من السطحية التى لا يرضى عنها العلم الدقيق .

لهذا نحن نستشهد بتلك الأساطير على الحالة الاجتماعية الإغريقية مطمئنين إلى خطتنا كل الاطمئنان .

تحدثنا أسطورة أن " لايوس " ملك تيبا عند ما ينبئه العراف بأن ابنه " أوديبوس " سيكون يوما شؤما عليه يصمم على قتله ، وفى الحال يسلمه إلى من يتولى تنفيذ ذلك التصميم توا. وتنبئنا أسطورة أخرى أن " أجا ممنون " حينما يعلم من الكاهن أن الرياح لن تهب إلا إذا نحر ابنته " إيفيجينيا " فإنه لا يتردد فى أن يضحى بها و يقدمها قربانا للإلهة الثائرة .

على أننا لو غضضنا الطرف عن الأساطير والتجأنا إلى التاريخ لألفينا أن رئيس الأسرة الإغريقية كان — قبل تشريع سولون — له الحق فى بيع بناته إذا كان فى حاجة إلى المال. و يروى لنا هذا التاريخ أيضا أن دراكون — وهو أقسى مشرعى أثينا وأبعدهم عن الرحمة — لم يضع فى قانونه مادة لمعاقبة قاتل والده ، لأن التقاليد كانت تقضى بأن يوكل عقاب هذا القاتل إلى رئيس الأسرة . ولا جرم أن هذا هو أقصى ما تصل إليه السلطة من حرية وطغيان .

أما المرأة فقد كانت الطاعة أقدس واجباتها التى لا يباح لها الخروج عليها ، وإذا مات زوجها أو غاب انتقلت السلطة إلى أرشد أولاده ، فوجب عليها أن تكون رهن إشارته غير ناظرة إلى السن أو إلى البنوة. ومن أمثلة ذلك إذعان " پينيلوپيا " زوج أوديسوس لابنها " تيليماكوس " أثناء انقطاع أخبار زوجها ، وكانت قد أرادت أن تفرض لشخصيتها وجودا ، فتشارك ابنها فى السلطة فأجابها فى حزم وقوة بأس قائلا ، " إرجعى إلى جناحك ، واشتغلى بأعمالك كالغزل والنسيج وإصدار الأوامر إلى خادماتك بأن ينهين مهماتهن ، فأما الكلام ، فهو من اختصاص الرجال ، وبالأحرى هو من اختصاصى أنا الذى آمر وأنهى فى هذه الدار . . . . " .

لاريب أن نظاما هذا شأنه يجرد الفرد — إذا ابتعد عن الأسرة — من أهم حقوقه الشخصية ، إذ أن أهميته الاجتماعية بل إن أمنه واطمئنانه على حياته واستمتاعه بماله وقوته ، كل ذلك يأتى إليه من لدن تلك الهيئة المقدسة المسماة بالأسرة . وكما أن الأسرة هى مصدر الغنم هى كذلك تشترك فى الغرم ، إذ لا يكاد أى فرد من أفرادها يقترف جريمة أو إثما أو يحدر إلى مخزية من المخزيات حتى تهوى كلها تحت المسئولية وتحتمل النتيجتين المادية والأدبية لهذا العمل .

أما الثروة العقارية للأسرة فلم يكن انتقالها إلى الأفراد مباحا، وإنما كانت ملكا عاما لهيئتها تبقى ببقائها وتنتقل بالوراثة دون أن تتجزأ أو تتعرض للتصرفات التي تقتضي خروجها من يد الأسرة . وكما كانت القسمة والتجزئة والبيع أمورا غير مباحة ، وكذلك كانت الوصية والهبة العقاريتان غير مألوفتين ، بل ولا معروفتين ، وقصارى القول : لم يكن رب الأسرة مالك الثروة إلا لأنه ممثل الأسرة ، وبعبارة أدق : كان حارسا عليها أكثر من كونه مالكا إياها ، ولهذا كان لزاما عليه أن يعتبرها وديعة عنده يردها قبل موته كما تسلمها يوم توليه زعامة الأسرة . ويصور لنا أفلاطون هذه الحالة إذ يقول في هذا الشأن ، " أنا لا أنظر إليكم ولا إلى ثرواتكم على أنكم ملك لأنفسكم ، وإنما أنظر إليكم على أنكم ملك لأسرتكم كلها ، وبعبارة أوضح : ملك لأجدادكم وأبنائكم وأحفادكم " .

غير أن هذه الأسرة المترامية الأطراف التي شاهدنا صورتها عند هومروس لم تظل كذلك طوال العصور الأثرية الإغريقية ، وإنما أخذت بعد العصر الحماسي تتجزأ إلى أسر أقل اتساعا ، فتنفصل منها أفرع غير أساسية فيها ، كأن تتبع البنات أزواجهن إلى حيث تقيم أسرهم بعد أن كن يثوين مع أولئك الأزواج في منزل والدهن .

عند الرومان :

على نفس هذه الصورة الأخيرة التي تركنا الأسرة عليها عند الإغريق نلفي الأسرة الرومانية تقريبا ، إذ نجدها قد تفرعت قليلا بحيث أصبح الذين يقيمون مع رئيسها هم : زوجه وأولاده إلى وفاته ، وبناته إلى يوم زواجهن ، وأعوان الأسرة وحلفاؤها من الطبقة الوسطى وعبيدها . ولكن الأسرة الرومانية الحقيقية كانت تتميز عن هذا الخليط الواسع الملحق بها والذي كان يثوى معها تحت سقف واحد بميزة أساسية ، وهي اتصال افرادها عن طريق الدم الأبوي فحسب ، بحيث كانت القرابة النسائية من المهانة إلى حد تقديم الحلف عليها في أكثر الحقوق . وقد نشأ ذلك من أن الوالد كان كل شيء ، وتركزت فيه جميع السلطات فكان له الحق في تسريح زوجه والاعتراف ببنوة أولاده أو جحودها ، وفي تزويج أبنائه وبناته ، وفي تبني من شاء وإلحاقه بالأسرة ، وفي تعيين وصي على زوجه وأولاده ، وكان هو وحده المالك الشرعي لثروة الأسرة بحيث كانت الزوج والأولاد لا يملكون شيئا خاصا ، بل إن المال التقليدي الذي تملكه السيدة بزواجها كان ينتقل بطريقة آلية إلى زوجها .

الدين الأثري في إغريقا وروما :

إذا كنا قد رأينا أن سلطان رئيس الأسرة في إغريقا وروما كان قويا إلى هذا الحد ، فإن سبب ذلك راجع إلى أن مصدر هذا السلطان هو الدين ، إذ أن ذلك الرئيس كان قبل كل شيء كاهن الأسرة والمشرف الأعلى على جميع الطقوس الدينية فيها . ولما كان الدين

فى تلك الأصقاع إذ ذاك أسريا محضا أى أنه لم يكن يقول لمعتنقه — وهو يشير إلى إنسان آخر — هـذا هو أخوك ، كلا ، وإنما كان يقول له : هذا أجنبي عنك بدين بغير دينك ولا يستطيع أن يساهم فى عبادتك المنزلية ولا ان يقترب من مقبرة أسرتك ، وبالإجمال : له آلهة غير آلهتك ، ولهذا فإن آلهتك ينبذونه ويرفضون عبادته وينظرون إليه على أنه عدو لهم ، فيجب أن يكون عدوا لك أنت أيضا .

لسيادة هذه التعاليم بينهم لم يكن أحد يدعو بالخير لغير نفسه وعشيرته ، وبالتالى هى أنست الفرد واجباته نحو بنى الإنسان ، ولكنها فى مقابل ذلك قد صيرت واجب الأسرة قوى الدعائم ، ثابت القوائم . إذ هى التى منحت الرئيس كل هذه السلطات التى كان لها الفضل الجوهرى فى الاحتفاظ بالأسرة نقية من الشوائب ، بعيدة عن الدنايا والمخجلات . ومما يجدر بالذكر هنا الإشارة إلى أن الدين هو الدافع الوحيد الذى حمل الأسرة الرومانية على أن تسمح لأعوانها وحلفائها من الطبقة الوسطى بالالتحاق بها والاجتماع معها حول النار المقـدسة ، بل بتقديمها إياهم على ذوى القرابة النسائية . وكذلك الدين هو السبب فى وضع الابن المتبنى فى منزلة الابن الحقيقى ، بل قد غالى الرومان فى هـذا إلى حد أن منحو الولد المتبنى الحق فى وراثة العرش .

عند الجيرمان :

على عكس ما رأينا فى إغريقا وروما نشاهد الأسرة فى الشعوب الجيرمانية المعروفة فى التاريخ باسم بربرة الشمال والتى غزت فى القرون الأولى للميلاد المسيحى الغرب المتمدين ولا سيما الأمبراطورية الرومانية ، فنحن نلفى نظام الأسرة فى تلك الشعوب أكثر رقيا ، وسلطان الأب أعظم اعتدالا ، إذ نجد القاعدة العامة هناك هى أن الثروة مشتركة بين الزوجين ، وأن القرابة الأمومية معتبرة فيها الى حد الاعتراف بسلسلتها كالسلسلة الأبوية سواء بسواء فى الحقوق والواجبات ، وليس هذا فحسب بل ان كل فرد من أفراد الأسرة كان يستطيع امتلاك ثروة عقارية خاصة يتصرف فيها كل التصرفات الشرعيـة . ولقد كانت الأسرة تتألف إذ ذاك من الزوجين وأولادهما وأحفادهما الذكور ومن لم يتزوج من الإناث .

هذا ، ويرى علماء الاجتماع ولا سيما دوركيم أن الأسرة الزوجية الأوروبية العصرية تقترب من الأسرة الجيرمانية أكثر مما تقترب من الأسرة الرومانية ، وهى لا تكاد تختلف عنها فى الجوهر الا من حيث ضيقها وانكماش حجمها .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية